بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المحاضرة الأولى : السيرة النبوية (تعريفها ، وأهميتها ومصادرها) .

المقدمة :

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد الذي قال الله عنه:؟ - ؟ (({ [الأحزاب: ٤٣] وعلى آله وصحبه، ومن اقتفى أثره، وسلَّم تسليماً كثيراً.

وبعد: فإن نعم الله على عباده كثيرة جداً، وإن من أجلّ تلك النعم وأعظمها نعمة الإسلام، فالحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ومما لا ريب فيه أن الدين الإسلامي له شرائع ونظم، منها ما يتعلق بالعبادة ومنها ما يتعلق بالأخلاق والمعاملات والسياسة وغيرها، وهذه كلها مجموعة أفعال الرسول ﷺ، وأقواله وتقريراته، ولا تُعْرَفُ تلك الشرائع إلا باتباع هدي النبي ﷺ،

ومما لا شك فيه أيضاً أن سيرته عليه الصلاة والسلام قد اشتملت على أقواله وأفعاله وتقريراته، فهي إذاً التجسيد الحيّ لتعاليم الإسلام، بل هي الصورة المشرقة لسلوكيات النبي ﷺ، وأصحابه. لذلك الكتابة في هذا الموضوع من الأهمية بمكان، والسبب في ذلك ما ذكرت من حاجة الناس في هذا الزمن على وجه التحديد من عمر الرسالة المحمدية، والعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وسيرته العطرة، ففي سيرته امتزجت أقواله بأفعاله، وظهر هديه ﷺ في دعوته ومراحلها، وسياسته في حروبه وتعامله مع الآخرين، وغير ذلك من أمور الدين والدنيا، لا تعرف إلا من خلال دراسة السيرة النبوية دراسة واعية متأنية، فهي نبراس لكل من أراد النور في الدنيا والآخرة.

خير الأخلاق الحسنة خلقه الأعظم، وخير الطرق الموصلة إلى الله تعالى طريقه الأقوم(٢) ولهذا "قال الله تعالى ترغيباً للأول والآخر في اكتساب تلك المحامد والمفاخر: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب:٢١]، وقال تعالى: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [آل عمران :٣١]، وقال: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور:٦٣] .

فالقرآن الكريم كتاب الله، محكم التنزيل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعد الله تعالى بحفظه فقال جل من قائل: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر:٩]، هذا الكتاب لا تنقضي عجائبه إلى يوم القيامة، وهو مائدة الله التي أكرم بها عباده المؤمنين الصادقين المخلصين من أمة سيدنا محمد ﷺ، منذ أن نزل به الروح الأمين على قلبه الطاهر المنير.

لقد نبههم هذا التنزيل العزيز، ووجههم الله تعالى فيما وجههم لسيرة المصطفى، وسيد الكائنات، المبعوث رحمة للعالمين، يقول تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧]، ويقول جل شأنه: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:٤] . لهذا فقد أولوا سيرته جل عنايتهم، وغاية اهتمامهم، فلقنوها أبناءهم، ونساءهم، ومواليهم، حتى كانوا يُحفِّظونَهُمْ مَغَازِيهُ كما يُحفِّظونهم السورة من القرآن.

يقول زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما: "كنا نُعَلَّم مغازي رسول الله ﷺ كما نُعَلَّم السورة من القرآن" (١) .

ويقول الإمام الزهري - يرحمه الله تعالى - في علم السيرة "علم الدنيا والآخرة" (٢)، وكان إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم يقول: "كان أبي يعلمنا المغازي والسرايا، ويقول يا بني هذه شرف آبائكم فلا تعدموا ذكرها" (١) .

لقد ظهر منهم أجيال جعلت عنايتها حفظ هذه السيرة العطرة وروايتها وتدوينها وكانوا يتناقلونها جيلاً بعد جيل، وطبقة بعد طبقة بأسانيدها وطرقها المختلفة حتى توافر لدينا قدر هائل، وثروة عظيمة، وميراث صحيح عن سيرة سيد الكائنات ﷺ .

وقد وجَّه القرآن الكريم الصحابة إما بصريح العبارة أو بطريق الإشارة إلى سرد كثير من أخباره وفضائله، وشمائله، ومنزلته عند ربه، وفضله على جميع الخلائق ﷺ فكان حَرِيًّاً بهم أن يولوا هذه السيرة العطرة جُلَّ عنايتهم، فتخصص فريق منهم في روايتها، وبرز فريق آخر في حفظها، وبرع ثالث في تدوينها والتصنيف فيها .

تعريف السيرة النبوية :

عند تعريف كلمة السيرة لابد من الرجوع إلى كتب اللغة ومعاجمها للوقوف على مدلول هذا اللفظ عند اللغويين، وذلك لكي يتضح ما يتضمنه هذا المصطلح الذي إذا أطلق ذهب المعنى تلقائياً إلى سيرة المصطفى ﷺ .

من هنا وجب التعريف بهذا المصطلح لغوياً حتى نتمكن من تعريفه بعد ذلك عند عموم المؤرخين، وعند أهل الاختصاص ممن يذهب إلى أبعد من التعريف الاصطلاحي، ليضمنه أموراً حسية ومادية، وظاهرة وباطنة عن شخص الرسول ﷺ، وذلك ليشمل التعريف كل شيء يتعلق بالرسول ﷺ منذ ولادته حتى وفاته، في شؤون الحياة كلها ؛ العقدية، والفكرية، والاجتماعية، والأخلاقية، والإنسانية .

بهذا المفهوم الواسع، لا بد أن يوفر التعريف اللغوي ما يوضح هذه الحقيقة عن مصطلح السيرة النبوية، وكيف تطور ليعطي هذا المدلول الواسع الشامل عن حياة نبي الإسلام، ومنقذ البشرية، وقدوة المؤمنين في كل زمان ومكان ﷺ: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} . [الأحزاب:٢١].

السيرة لغة :

يقول أهل اللغة: سار سَيراً، وتَسْياراً، ومَساراً، وسار السنَّةَ أو السِّيرةَ: سلكها واتبعها .

ويقولون أيضاً: السيرَة: معناها الهيئةُ، والسنةُ، والطريقةُ، والمذهبُ، ووصفُ السلوك، ونحن في السيرة النبوية نتطرق وبشكل أساسي إلى هيئته، ووصفه ظاهراً وباطناً في باب الشمائل المحمدية والتي أشار القرآن الكريم إلى كثير منها .

كما نقف طويلاً عند سنته القولية والفعلية والإقرارية في أطوار حياته بعد البعثة في كل موطن ومشهد من أحداث السيرة العطرة .

السيرة - تعني السّنة والطريقة، والحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره. يُقال فلان له سيرة حسنة.

- والسيرة: الطريقة، يُقال: سار بهم سيرة حسنةً.

والسيرة: الهيئة.

والسيرة: الضرب من السَّيْر .

ويلاحظ أنّ من معاني السيرة لغة: السُّنَّة.

لفظة السيرة جذرها اللغوي الفعل (سار) بمعنى مشى ، وقد تأتي بمعنى الطريقة أو الصفة، وجاءت لفظة السيرة في القرآن الكريم صريحة بقوله تعالى : (سنعيدها سيرتها الأولى) أي: إلى صفتها وحالها الأولى ؛ وهي العصا بعد ان تحولت إلى حية تسعى معجزة من الله سبحانه لنبيه موسى عليه السلام . جمع لفظة سيرة : سير .

- السيرة اصطلاحًا:

- السيرة اصطلاحًا تعني قصة الحياة وتاريخها، وكتبها تسمّى: كتب السير، يُقال قرأت سيرة فلان: أي تاريخ حياته. والسيرة النبوية تعني مجموع ما ورد لنا من وقائع حياة النبي ﷺ وصفاته الخُلقية والخَلقية، مضافا إليها غزواته وسراياه ﷺ.

- والسيرة النبوية اصطلاحاً: هي الترجمة المأثورة لحياة النبي - ﷺ -.

أو هي: ما أثر عن النبي - ﷺ - من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلْقية أو خُلُقية أو سيرة، سواء كان قبل البعثة أو بعدها .

وهذا التعريف ذكره المحدِّثون للسنة، وهو تعريف للسيرة أيضاً؛ لأنّ من معاني السيرة في اللغة: السُّنّة، ولأنّ التعريف اشتمل على ذكر حياة النبي - ﷺ - كلها قبل البعثة أي: من ولادته وبعدها حتى وفاته.

أما تعريف السيرة عند عموم المؤرخين وفي حالة الإطلاق:

فهو يعني التعرض إلى كل الأحداث المبكرة من تاريخ الإسلام، وعلى التحديد بدايةً من بعثته ﷺ، وبدء رسالته، وانتشار الإسلام، كما يقصد بها تاريخ الجهاد لنشر الدعوة الإسلامية، وإقامة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، والتي جمعت الناس تحت لوائه، حتى أصبحوا أمة واحدةً،لم تلبث بعد فترة وجيزة أن خرجت خارج حدود المدينة المنورة لتُؤَسِّس الدولة الفتية، التي عاصمتها المدينة المنورة، وما لبثت بعد وفاته أن خرجت حتى خارج حدود جزيرة العرب .

تعريف السيرة عند أهل الاختصاص:

ولو أردنا أن نعرف مصطلح السيرة عند أهل الاختصاص من المحدِّثين والمؤرخين الذين أَوْلَوْا السيرة عناية خاصة معتمدين على النصوص القرآنية الواضحة والأحاديث النبوية الثابتة نصاً ومتناً، لرأيناهم يتجاوزون به إلى ما صحَّ من الإرهاصات النبوية منذ مولده، ونشأته، وصباه، وشبابه، ومظاهر حفظ وعناية الله به ﷺ، حتى كمل سنه أربعين، فجاءه الوحي المبارك، وأمره بتبليغ هذا الدين القويم إلى الناس كافة .

مدلول كلمة: السيرة النبوية:

إذا قيل السيرة النبوية، فإنما يراد بها سيرة نبي الله ورسوله محمد بن عبدالله - ﷺ-، والتي تشتمل على ذكر أدق التفاصيل عن حياة سيدنا ونبينا محمد - ﷺ - في المرحلة المكية والمدنية، وعلى هذا درج المؤلفون عن حياة النبي - ﷺ - بتسمية مؤلفاتهم بالسيرة النبوية، كالسيرة النبوية لابن إسحاق، وتهذيب ابن هشام(١)، والسيرة النبوية لابن حزم (ت: ٤٥٦هـ)، والسيرة النبوية لعبد الغني المقدسي (ت: ٦٠٠هـ)، والسيرة النبوية لابن عساكر، المطبوعة ضمن تاريخه الشهير بتاريخ ابن عساكر (ت:٥٧١هـ) وغيرها.

والملاحظ أنّ هذه المصنفات الموسومة بالسيرة النبوية، جميعها تتحدث عن حياة النبي - ﷺ - في المرحلة المكية والمرحلة المدنية، إلا أن بعضها أكثر تفصيلاً عن حياته عليه الصلاة والسلام من بعض .

خصوصية السيرة النبوية

تمتاز السيرة النبوية بخصائص عدة لا يمكن حصرها منها:

١- كونها ربانية المصدر، بمعنى أنّ صاحبها وهو نبينا محمد - ﷺ - مرسل من ربه إلى الناس كافة { ويتلقى تعاليمه من الله سبحانه وتعالى]، ولا يقول شيئاً من ذات نفسه فيما يتعلق بأوامر النبوة والرسالة أبداً .

وهذه الخصوصية وإن كان يشاركه الأنبياء في بعضها إلا أن نبينا انفرد بكونه - ﷺ - مرسلاً إلى الناس كافة، فأوامره ونواهيه ملزمة ومقررة للناس جميعاً.

٢- ثبوتها وصحة ما جاء فيها: فقد أورد القرآن الكريم صوراً من سيرة النبي - ﷺ - على سبيل الإجمال، حيث أشار إلى الحالة التي نشأ عليها - ﷺ - في أول حياته ، ثم بعض أخلاقه وشمائله ثم في جهاده وغزواته، فالقرآن الكريم مليء بمثل هذه الإشارات المقتضبة، وعلى هذا فالقرآن الكريم يعدُّ المصدر الأول لسيرة النبي - ﷺ -، وكفاك به صدقاً وعدلاً .
كما أنّ كتب السنة قد نقلت لنا معظم سيرة الرسول - ﷺ - وبأصح ما جاء فيها، حيث أورد البخاري ومسلم في صحيحيهما جملة كبيرة من السيرة النبوية، وكذا بقية كتب السنة.

٣- شمولها وكمالها: فلا تكاد تجد سيرة لنبي من أنبياء الله السابقين وصفت وصفاً دقيقاً ابتداء من ولادته حتى وفاته وبقيت بعده، فضلاً عن غيرهم من البشر، لكن سيرة نبينا ﷺ شملت جميع مراحل حياته، بل وقبل ولادته حتى وفاته عليه الصلاة والسلام، بل وفي بعض أحداثها ذكر اليوم والشهر والسنة، وشاملة لجميع مناحي الحياة الإنسانية، فتجد فيها الوسطية، والعدل والمساواة والحرية، والرفق بالإنسان والحيوان وغيرها.

٤- وسطيتها ويسرها: فدين الإسلام عموماً جاء بالوسطية قال عليه الصلاة والسلام: ((يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا)).
وقال - ﷺ -: ((إنما بعثتم مُيَسِّرين ولم تبعثوا معسِّرين)).

وقال لمعاذ عندما بلغه إطالة صلاته بالناس: ((يا معاذ أفتّان أنت، أو أفاتن أنت؟ ثلاث مرات، فلولا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى)). فأمّة الإسلام أمة وسطية معتدلة، قال أبو جعفر الطبري: ((فلا هم أهل غُلُوٍّ فيه، غُلُوَّ النصارى الذين غَلَوا بالترهب، وقِيلِهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين أبدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل وسط واعتدال فيه فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها)). إلى غير ذلك من خصائص السيرة النبوية.

السيرة النبوية وأهم مميزاتها

يستمتع الدارسون والمتلقون من أبناء هذه الأمة المحمدية عندما يصف المحدثون والمؤرخون سلوكه الرباني العظيم مع ربه عز وجل أولاً، ثم مع أتباعه من الأصحاب والأحباب وخاصة مع أهل بيته، وخدمه، ومواليه، حتى مع دوابه ﷺ .

ونحن أمة محمد ﷺ مطالبون بالسير على خطاه، وباتباع سننه بقدر المستطاع ؛ حتى ننال الأجر والثواب: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} [آل عمران:٣١]، ويقول تعالى: {وَأَطِيعُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [آل عمران:١٣٢] .

وآيات الطاعة والاتباع والتعزير والتوقير كثيرة في كتاب الله الحكيم، فلا يكمل إيمان المسلم إلا إذا كان اللهُ ورسولهُ أحَبَّ إليه مما سواهما .

ولا يكمل إيمان المرء المسلم إلا إذا قدّم محبة هذا النبي ﷺ على محبة والديه وولده ونفسه والناس أجمعين، كما في حديث أنس رضي الله عنه المتفق عليه وحديث أبي هريرة وحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عند البخاري .

فكانت بحق أعظم وأكمل سيرة لإنسان على وجه الأرض، كيف لا، وهي السيرة المؤسسة على النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، والوثائق التاريخية، والتي جعلتها صالحة لكل زمان ومكان ؟ ويكفيه أن قال عنه ربه:

{وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:٤]، وقوله تعالى: {... بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة:١٢٨]، وقوله ﷺ: "أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبي"(١)، وقوله: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (٢) .

ولهذا قالت أم المؤمنين الصدّيقة بنت الصديق - رضي الله عنها - عندما سُئلت عن خلقه ﷺ . فقالت : "كان خلقه القرآن" (٣).

والخلاصة: أننا لو أردنا أن نجمل مزايا هذه السيرة النبوية العطرة لأكمل إنسان على ظهر الوجود فإننا لن نستطيع أن نجملها في عبارات أو حتى في أشعار أو صفحات، لكن هذا كله لا يعفينا من أن نذكر قدر المستطاع أهم مميزات هذا العلم المبارك - علم السيرة النبوية- في نقاط محدودة لتكون واضحة يمكن استيعابها، وتكون ضوءاً لكل ما تقدم في هذا البحث عن السيرة النبوية ومباحثها المختلفة على النحو الآتي:

أولاً- أنها أصح سيرة لتاريخ نبي مرسل، فقد وصلت إلينا عبر أصح الطرق دقة وضبطاً

ووضوحاً، بما لا يترك مجالاً للشك في وقائعها البارزة، وأحداثها الكبرى (٤) .
ثانياً- أنها واضحة كل الوضوح في جميع مراحلها منذ زواج أبيه عبد الله بأمه آمنة وحتى وفاته ﷺ، مما يجعل سيرته واضحة وضوح الشمس وضياء القمر (٥) .

ثالثاً- أنها سيرة واقعية تحكي سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة فلم تخرجه عن إنسانيته، ولم تلحق حياته بالأساطير، ولم تُضْفِ عليه الألوهية قليلاً ولا كثيراً (١)، ولهذا ظلت سيرته المثل النموذجي للإنسان الكامل، وهي القدوة لكل من أراد أن يعيش سعيداً كريماً في نفسه وأسرته ومرضياً لربه عز وجل .
رابعاً - أنها سيرة شاملة لكل النواحي الإنسانية، كأب، وزوج، وقائد، وصديق، ومربّ، وداعية، وسياسي، وقبل كل ذلك نبي ورسول ﷺ (٢).
خامساً- أنها سيرة تعطي الدليل الذي لا ريب فيه عن صدق نبوته ورسالته لأنها سيرة إنسان سار بدعوته من نصر إلى نصر (٣)، ودعا الناس إلى ربه في تأدب وخشية وشفقة ورأفة ورحمة حتى أتاه اليقين .
سادساً- أنها مستوفية لكل الجزئيات والكليات التي تحويها السيرة بأدق العبارات وأشمل الأوصاف لحياته ﷺ .
فﷺ كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون صلاةً كما يحب ربنا ويرضى.

أهمية السيرة ومكانتها:

أهمية علم السيرة النبوية في حياة المسلمين
إن لسيرة النبي ﷺ العطرة، سِجِلاً حافلاً بالمآثر، مليئاً بالمكرمات، مفعماً بالفضائل والدروس، إنها كثيرة المواعظ والعبر التي تنبض بالنور، وترشد إلى الخير، وتوقظ الهمم، وتشحذ العزائم، وتزيد الإيمان، وترسم الطريق إلى مرضاة الله عز وجل، وتضع المعالم أمام الدعاة والمصلحين .

إنها تجسد القيم العليا والمبادئ الرفيعة في شخص النبي محمد ﷺ، واقعاً محسوساً لحياة كريمة فاضلة، سار على هديها الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم، ومَنْ جاء بعدهم من التابعين وتابعيهم بإحسان، فاستنارت العقول، وصلحت القلوب، وزكت النفوس، واستقامت الأخلاق، فكانوا بحق خير أمةٍ أُخرجت للناس .

لقد كان السلف الصالح يعلِّمون أبناءهم هذه السيرة كما يعلمونهم السورة من القرآن، فنشؤوا على الفضائل، ونهضوا إلى المكارم، وطمحوا إلى معالي الأمور، واتخذوا من الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً أعلى، ومناراً شامخاً، وقدوة حسنة ينالون باتباعه واقتفاء أثره والعمل بسنته خير الدنيا وسعادة الآخرة.

فالسيرة النبوية هي الترجمة العملية للقرآن الكريم، وهي التطبيق الصحيح للكتاب والسنة المطهرة، في واقع الحياة على جميع محاورها، ولهذا تقول السيدة عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - :"كان خلقه القرآن".

ففي العبودية والتعلق بالله سبحانه وتعالى كان المثل الأعلى حيث عرف ربه وعبده، وتوكل عليه حتى أتاه اليقين، وفي دعوته إلى الله تعالى دعا بالحسنى، فحاز على رضوان الله عز وجل، وفي تربيته لأصحابه كان من أرفق الناس بهم، وذلك بتوفيق وأمر من الله تعالى .

وفي جهاده، وفي علاقاته، وفي بيعه وشرائه، وفي سفره وحضره، وفي طعامه وشرابه، ومع أهل بيته وجيرانه، ومع الفقراء والمساكين، والأطفال والنساء، حتى مع الجمادات والحيوانات، ومع كل شيء يحيط به، ويدخل في دائرة احتياجاته كان القدوة والمثل الكامل ....

لقد كان ﷺ رحمة مهداة من المولى عز وجل لجميع مخلوقاته . يقول تعالى في محكم التنزيل: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧]، ويقول تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ: ٢٨] .

من هنا يجمع المحدثون، والمؤرخون، وجمهور هذه الأمة، على أن السيرة النبوية تجسيد حي للتاريخ الإسلامي المجيد في عصر النبوة، من الناحية العملية؛ لأن حوادثها ارتبطت بشخصه الكريم ﷺ في كل جوانب حياته العملية والفكرية والنفسية والاجتماعية، حتى الإنسانية .

فعلم السيرة النبوية من أشرف العلوم وأعزها وأسناها هدفاً ومطلباً، بها يعرف المسلم أحوال دينه، ونبيه ﷺ، وما شَرَّفه المولى عز وجل من أصل كريم، ثم ما أكرمه به من اختياره للوحي

والرسالة، وحمل عبء الدعوة الكاملة .

ثم ما قام به من بذل الجهود المتواصلة، وما عاناه من البلاء والمحن في هذا السبيل، وما حظي به ﷺ من نصرة الله وتأييده بجنود غيبية، وملائكة كرام بررة، وتوجيه الأسباب له، وإنزال البركات، وخوارق العادات .

إن التاريخ لم يتحدث عن سيرة أحدٍ وصفاته، ولا عن أطوار حياة إنسان ومنهجه مثلما تحدث عن سيدنا محمد ﷺ، وما هذا إلا لأنه جاء بالرسالة الجامعة، والدين الخاتم، فنسخ ما قبله، ولاشيء بعده . لقد انقطع بعده حديث السماء إلى الأرض، فكان خليقاً به أن يكون طرازاً من البشرية النقية الصرفة التي تعطي البشر القدوة والمثالية في الاستقامة على النهج الواضح، وجادة السواء، وسبيل التوحيد (٣).

إن الواقع اليوم وفي ظل الإمكانات الهائلة التي وفرها عصر المعلوماتية عبر وسائله المختلفة، كالبرامج، والموسوعات الحديثية، والتاريخية، أو عبر وسائل الاتصال بالمكتبات العالمية، وما تزخر به من مصادر ومراجع عن المعرفة الإنسانية، وبخاصة التاريخ الإسلامي يحتم علينا أن نستثمر هذه الإمكانات والخدمات لجمع مرويات السيرة النبوية وأخبارها، وبداياتها الأولى رواية وحفظاً وتدويناً عبر العصور والعصور الثلاثة الأولى على وجه الخصوص، جيلاً بعد جيل، وطبقة بعد طبقة، اعتماداً على المراجع الصحيحة الموثوقة التي اعتمدت صحة الأسانيد والمتون .

١- السيرة النبوية هي السبيل إلى فهم شخصية الرسول ﷺ، من خلال حياته وظروفه التي عاش فيها، للتأكد من أنه ﷺ لم يكن مجرد عبقري سمت به عبقريته، ولكنه قبل ذلك رسول أيده الله بوحي من عنده.

٢- تجعل السيرة النبوية بين يدي الإنسان صورة للمثل الأعلى في كل شأن من شؤون الحياة الفاضلة، يتمسك به ويحذو حذوه، فقد جعل الله تعالى الرسول محمدًا ﷺ قدوة للإنسانية كلها، حيث قال سبحانه: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) (الأحزاب:٢١).

٣- السيرة النبوية تعين على فهم كتاب الله وتذوق روحه ومقاصده، فكثير من آيات القرآن الكريم إنما تفسرها وتجليها الأحداث التي مرت برسول الله ﷺ.

٤- السيرة النبوية صورة مجسدة نيرة لمجموع مبادئ الإسلام وأحكامه، فهي تكوّن لدى دارسها أكبر قدر من الثقافة والمعارف الإسلامية، سواء ما كان منها متعلقًا بالعقيدة أو الأحكام أو الأخلاق.

٥- السيرة النبوية نموذج حي عن طرائق التربية والتعليم، يستفيد منه المعلم والداعية المسلم. فقد كان الرسول محمد ﷺ معلمًا ناجحًا ومربيًا فاضلاً، لم يأل جهدًا في تلمس أجدى الطرق الصالحة في التربية والتعليم، خلال مختلف مراحل دعوته.

٦- من خلال السيرة نتعرّف على جيل الصحابة الفريد، الذي كان صدى للقرآن، وكان التطبيق العملي لحكم الله أمرًا ونهيًا.

٧- تمتاز سيرة الرسول ﷺ بأنها نُقلت إلينا كاملة في كلياتها وفي جزئياتها، ولا تملك الإنسانية اليوم سيرة شاملة لنبي غير السيرة النبوية على صاحبها صلوات الله وتسليمه.

إن الاهتمام بكتابة السيرة النبوية ظهر مبكراً في التاريخ الإسلامي ، وقد تناوله بالتصنيف المؤرخون والمحدثون في القرون الأولى ، وتمتاز كتابات بعض المؤرخين مثل الواقدي والبلاذري بالعناية بمراعاة ترتيب الأحداث ترتيباً زمنياً موضوعياً ، في حين تظهر التجزئة للأحداث في كتابات المحدثين الذين التزموا بقواعد الرواية وتمييز الأسانيد عن بعضها ، وربما قطّعوا الرواية الواحدة فخرجوا بعضها في مكان وبقيتها في مكان آخر ، كما يظهر ذلك جلياً في قسم المغازي الذي كتبه الإمام البخاري ضمن صحيحه ، ويظهر بصورة أخف عند الإمام مسلم في صحيحه بسبب عنايته الخاصة بسرد المتون الطويلة وتحرير ألفاظها لأنه أقل عناية من البخاري بتقطيع الروايات حسب تراجم كتابها .

سائر الذين كتبوا في السيرة النبوية اهتموا بجمع ما أمكنهم من الروايات وتدوينها دون ان يشترطوا الصحة فيما يكتبونه ، وأحالوا القارئ على الأسانيد التي أوردوها ليعرف الصحيح من

الضعيف ، ويشذ عن ذلك البخاري ومسلم حيث شرطا الصحةَ فيما روياه من روايات السيرة ضمن كتابيهما الصحيحين ، كان المختصون في القرون الأولى يعرفون الرواة وأحوالهم والأسانيد وشروط صحتها فكان بوسعهم الحكم على الروايات وتمييزها ، لكن هذه المعرفة لم تعد من أسس الثقافة في القرون المتأخرة ، بل يندر أن تجد من يهتم بذلك من مثقفي هذا العصر .

إن البداية الطبيعية لتاريخ الإسلام وأعظم وأهم ما فيه هو سيرة النبي ﷺ ، إن الرجل المختار للنبوة يجب أن يمثل النموذج الذي يريده الله تعالى على الأرض للإنسان ، لا ترى في أعماله أي خلل أو ضعف ، أو ضعه ، ولا في تصرفاته أي تشتت أو تناقض ، بمعنى ان الرجل المعصوم من الخطأ المبرأ من الزلل ، أكمل الخلق وأفضلهم ، ولأجل ذلك جعل الله تعالى نبينا محمداً ﷺ أسوة لبني الإنسان مدى الدهر ، وفرض عليهم أن يقتدوا به في كل شيء حتى جزئيات أفعالهم

إن من المقبول والمسلم به لدى الجميع أن قول النبي ﷺ وفعله ، وتقريره ، حجة ودليل على الحكم الشرعي ، لقوله تعالى : (وما آتاكمُ الرسولُ فخذوهُ وما نهاكم عنهُ فانتهوا) الحشر: ٧ وذلك يعني : أنه لابد من تتبع أقواله ، وأفعاله ، ومواقفه ﷺ لمعرفة ما يتوجب على المكلفين معرفته في نطاق التزامهم بالحكم الشرعي والتأسي بالرسول الأكرم ﷺ ، كما يدل ذلك ان النبي معصوم في كل قول أو فعل أو موقف يصدر عنه ، ولا تختص عصمته بمقام التبليغ القولي للأحكام ولأجل ذلك فإن من المفترض أن يتناقل الناس كل ما صدر عن النبي ﷺ من قول وفعل عبر الأجيال ، وأن يدونوه ويحفظوه ، وان يجمعوه ويفسروه ، لاسيما أن الرسول ﷺ قد ذكر :(انه أوتي القرآن ومثله معه) وكان جبريل عليه السلام ينزل عليه ويعلمه السنة كما يعلمه القرآن ، وهنا تكمن أهمية السيرة النبوية وأهمية دراستها .

أهمية دراسة السيرة النبوية من الناحية الدينية(المنهج الدعوي)

تعدُّ السيرة النبوية لب الإسلام وروحه، وتجسيداً حيًّا لجميع تعاليم الإسلام، فلا يستغني عن النظر فيها أي عالم أو طالب علم، فهي دوحة عظيمة فيها كل الثمار اليانعة، كلٌّ يقطف منها ما يناسبه، وكيف لا تكون كذلك وهي ربانية المصدر - ؟

فلو أمعن الإنسان النظر في السيرة النبوية لوجدها من الناحية الدينية كاملة المنهج،

وهكذا وضع - ﷺ - منهجاً متكاملاً لمراحل الدعوة الإسلامية، فلم يُقَدِّم مرحلة على أخرى، وليس هذا من قبيل المصادفة، بل كان عملاً مقصوداً.

فالعاملون في المجال الدعوي لا يسعهم إلا الاقتداء بالنبي - ﷺ - في هذا المجال.

الأمر الثاني: التركيز على الجانب العقدي

ظلّ النبي - ﷺ - في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى التوحيد الخالص. وهذا أمر معلوم، لكن ليس معنى هذا أنه لم يكن يدعو إلا إلى التوحيد فقط، بل كان يدعو إلى صدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، والنهي عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، إلاّ أن تركيزه - ﷺ - على الجانب العقدي كان أكثر. والحق أن التركيز على الجانب العقدي في غاية الأهمية؛ لأنّ الإيمان إذا وقر في القلب انتفت جميع الشوائب المؤدية إلى زعزعة الإيمان، وقد آتت دعوة النبي - ﷺ - المكية وتركيزه على الجانب العقدي ثمارها يلحظ من قرأ تاريخ حروب الردة التي أعقبت وفاة النبي - ﷺ - فلم نجد أحداً ارتد من المهاجرين والأنصار أبداً، وما ذلك إلا لرسوخ الإيمان في قلوبهم رضوان الله عليهم أجمعين.

الأمر الثالث: أنّ السيرة النبوية مصدر مَعِين لمن يريد التبحر في علوم الشريعة

فعن طريق السيرة تعرف قضية الناسخ والمنسوخ من الآيات والأحاديث، وهي ناحية مهمة جدّاً يترتب عليها كثير من الأحكام الشرعية .

كما أن من معرفة نزول الآيات وأسبابها من الأمور المهمة التي بمعرفتها تعرف أحداث السيرة النبوية كتلك التي نزلت في غزوات النبي - ﷺ -.

أيضاً هناك بعض الأمور التي لا يستغني عن معرفتها أي طالب علم فضلاً عن العلماء، وذلك مثل المعجزات التي أجراها الله على يدي النبي الكريم - ﷺ - فمعرفتها تزيد - ولا شك - في الإيمان، وكذا معرفة ما كابده - ﷺ - من مشاق في سبيل تبليغ هذا الدين وصبره على ذلك.

أهمية دراسة السيرة النبوية من الناحية الاجتماعية

لقد سلك النبي - ﷺ - طريقة عجيبة في كيفية دعوة الناس إلى الإسلام، ستظل نبراساً لكل من أراد الاهتداء بهديه سالكاً طريقته عليه الصلاة والسلام، إنّها طريقة الصابرين - ؟ [الروم:٦٠].

إنّ سيرة النبي عليه الصلاة والسلام مليئة بالمواقف العجيبة التي تَجَلَّى فيها حلمه عليه الصلاة والسلام وصبره على الأذى من أجل المحافظة على العلاقة الاجتماعية.

في كيفية تعليمه - ﷺ - لبعض الصحابة وتربيته لهم إذا كان النبي الكريم - ﷺ - حريصاً على تألف الناس للدخول في الإسلام، فإنّه كان أشد حرصاً على تعليم من أسلم منهم بالرفق واللين في حالة حدوث تصرفات من بعضهم بسبب جهلهم بتعاليم الإسلام أو لقربهم من العهد الجاهلي وعاداته السيئة، في كيفية تعامله - ﷺ - مع بعض المشكلات الاجتماعية

إنّ التلاحم والترابط الاجتماعي في ظل العقيدة الإسلامية، والأخوة الإيمانية، يولِّد شعوراً كبيراً في نفس المسلم، تجعله يعيش في حياة سعيدة طوال حياته؛ لأنّه فَقِه قول المصطفى - ﷺ -: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)).

ولا شكّ أن الروابط التي تجمع الناس تختلف من مجتمع لآخر، فهناك روابط مشتركة بين أمة وأخرى بسبب المصالح الدنيوية، فإذا فقدت تلك المصالح انتهت تلك الروابط، وقد تجتمع الروابط بسبب آصرة القربى النَّسبي أو العِرْقي، ولكن رابطة العقيدة تبقى بين المسلمين حتى الموت.

ولذلك حصر الله الأخوة والموالاة في المؤمنين فقط، وقطعها بين المؤمنين والكافرين حتى لو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو أبناءهم ففي هذا تحقيق لمبدأ العدالة، فحتى لا تؤاخذ قبيلة محافظة على العهد بجريرة قبيلة أخرى نقضت العهد، وهذا ما تم بالفعل، فلم يتعرض الرسول - ﷺ - لقبيلة بني النضير أو قريظة حال نقض بني قينقاع عهدهم لبقائهما على عهدهما، ولم يتعرض لقبيلة بني قريظة حال نقض بني النضير عهدهم لبقائهم على عهدهم.

فطبَّق الرسول - ﷺ - مبدأ العدالة من جهة، ومن جهة أخرى يدل هذا العمل على الحنكة السياسية التي كان يتمتع بها النبي - ﷺ -.

وبهذا اطمأنَّ النبي - ﷺ - على الوضع الأمني للمدينة من هجوم القبائل المجاورة لها، ومن فتنة اليهود المتوقعة وإثارتها للفتن والاضطرابات بين أفراد المجتمع المدني، ثم استطاع بعد ذلك وفي فترة وجيزة مواجهة قريش خاصة والتفرغ لها لإنهاكها اقتصاديّاً، فما من قافلة ذاهبة أو قادمة من الشام إلا وتعرض لها بإرسال السرايا أو الخروج إليها بنفسه - ﷺ -، ولم يكتف بذلك، بل تعدى خطر المسلمين على تجارة قريش بإرسال السرايا لقوافلها المتجهة إلى الطائف أو القادمة منه مما سبب إزعاجاً كبيراً لقريش، حتى كانت غزوة بدر التي كسرت فيها شوكة قريش لأول مرة وفي أول لقاء بين المسلمين والكفار، وفيها دَوَّى انتصار المسلمين في جميع أرجاء الجزيرة العربية،

وقطع دابر القوم الذين كفروا والحمد لله ربِّ العالمين.مدرس المادة : الدكتور حسين اعبيد الجبوري .